

جديد او جريس جديد في هذه اللحظة . ولكن يجب ان يكون عندنا احدا ما « يحافظ على حضارتنا من ان تصبح محض اجتماعية » في الوقت الحاضر ، ويجب ان تستمر بعض المجالات « لابقاء الطرق مفتوحة » حتى الوقت الذي يظهر فيه مثل هذا ، هو وامثاله . وعندما افكر بهذا اكف عن الشعور بانني في طريقي الى الزوال .

روبي مكولي

المجلة الثقافية وتطویر الحضارة

كل نمو هو نتيجة للحرية . والحضارة تنمو او تحدّ استنادا الى مدى ترحيبها بالافكار الآتية من الخارج ، او الى مدى حريتها بالفوس في اعماق ذاتها بحيث تجدد النظرات التقليدية وتقبلها باسلوب العصر . والحضارة هي ايضا حالة تتميز بالعالية الدائمة ، غير المترابطة احيانا : والدينامية والثقافة كلمتان يغلب ذكرهما معا ، ويؤكدان مقياس الصحة والنمو في حضارة ما . وهناك طريقة اخرى في النظر للحضارة ، هي معرفة مقدار حساسيتها تجاه التحيزات - باي شكل كانت - ومقدار مقاومتها للقبول غير النقدي للافكار المسلم بها ، او - من الناحية الاخرى - سهولة خضوعها لاية فكرة تعرض بشكل سلمي : اي فكرة يصحبها التطرف والعنف والتعصب عند اتباعها . ومن افضل مقاييس الحضارة في الواقع قدرتها على عزل او تجريد التعصب السلي من قوته . ولتوضيح ذلك ، يمكننا تقسيم الحضارات الى صنفين : حضارات منفتحة او ايجابية ان مقبلة ، وحضارات منطوية او سلبية او رافضة .

ان الحضارات المنفتحة حضارات مقبلة ، تجريبية ، قوية ، متحدية . انها تجذب الانتباه وتستقطب التجريبيين . ولعلها تستوعب قدرا كبيرا من الوسائل والاساليب من خارج مداراتها ، وتستعملها لاغراضها الخاصة . انها جديدة ، ولكنها تعمل مع ذلك على قاعدة من الثقة التراثية في العلاقات الانسانية . وهي ليست في حالة فوضى . ان كثيرا من الحضارات « الجديدة » تعرض سائر الصفات التي ذكرناها ، ولكنها لا تصب مع ذلك حضارات حقيقية لان مصدر فعاليتها يكمن في خلق الفوضى والاختلال الذي يغطي ستار براة من الاتجاه الراديكالي لدى الحكومة (في السياسات الاقتصادية مثلا) مما يخدع المراقبين من الخارج فيحسبوا دليلا على الدينامية ، بينما ليس هو في الواقع اكثر من فوضى متحجبة . ان مثل هذه الحضارات المنفتحة ظاهرة فحسب موجودة اليوم في اقطار عديدة . اما الحضارات المنفتحة فعلا فهي تلك التي تعمل انطلاقا من شعور بالثقة ، لا من شعور بالخوف او بالنقص .

والحضارات المنطوية اسهل على التعريف . فهي تشبه العوائس المكبوتات في الاسرة . انها ناقدة عاذلة تميل الى الجمود الفكري ، والغرور ، والرضى عن النفس ، والعزم على المحافظة على « التقاليد » . وتا الحضارة المنطوية عادة عن عهد يختصر في حضارة معينة ، عن حضارة تلفظ انفاسها الاخيرة - حين تؤدي نسمة واحدة من الهواء الطلق الى بعثرة مظاهرها البراقة . وهناك عدة امثلة على هذا النوع من الحضارات في هذه الايام . ان الحضارة المنطوية ، في هذا المجال ، ليست حالة مستمرة دائمة بل حالة تشير الى ان التعريف الاخير قد استهلك قوته وان من الواجب اختراع مفردات جديدة وتوسيع حدود التعريفات .

ثمة نوع ثان من الحضارات المنطوية . وهذا يوجد في البلد الحديث جدا ، الذي تكتب فيه كلمة الانطواء بحروف كبيرة ، وتصر الحكومة او المجتمع فيه بقوة على الاشياء التي لا يمكن فعلها ، او التي لا ينبغي فعلها . وربما تكون مجتمعات كهذه قد خططت سياستها بعناية في كل مجال من مجالات فعاليتها ، كما انها تظهر قنوا فائقا من الدقة في حاجتها للسياسات المتبعة . ولكن في اي بلد يكون فيه التخطيط مرادفا للتقدم ، وتتخذ كلمة التخطيط طابعا من الحتمية الصوفية ، فانها تتسع حتما لتشمل كل مجالات الفنون والثقافة . ولكن الاغراء هنا من الشدة بحيث لا يسمح بوجود « حالة مخططة من الفوضى » ، حيث تعرض على العاملين في حق الثقافة الامكانيات المالية والتسهيلات القيمة ، ثم يتركون ليارسوا عملية الخلق كيفما شاؤوا . وهكذا يكون

لزاما على الفنانين والحقاقين ان يتلقوا التعليمات وان يتعلموا كيف عليهم ان يعبثوا نشاطهم ابتغاء لخير المجتمع او لخير القطر او - وهو ما يغلب ان يكون الواقع - لخير الحزب . وعندما يحدث هذا فان من الطبيعي ان نحصل على قائمة طويلة من اقاط الانطواء غير المكتوبة . فهناك عدد من الاشياء ليس بوسعك ان تفعلها او ان تجدها ، فان فعلت عرضت نفسك للرفض الرسمي او لسحب الامكانيات المهيأة لك من قبل . وعلى هذا فان الحضارة المنطوية ، في هذا المجال ، تم عن بيوريتانية - عن حضارة بيوريتانية .

كيف تدخل المجلة الادبية في هذا النشاط ؟ في ابسط الحالات ، هناك مرشد واحد اولي لدور المجلة الادبية : هل تعكس على صفحاتها ما يحدث حقا او ما لا يحدث (والجانب الاخير قد يكون اهم في بعض الاحيان) في قطر او قارة ما ؟ ان النشاط الحضاري الحق هو عملية خفية يجري فيها النشاط الرئيسي تحت السطح المنظور . والمجلة الادبية بهذا المعنى يجب ان تفحص الى هذه الاعماق ، وان تلقي بشباكها عمقا واتساعا ، ثم تعرض شبكتها بصيدها المتلوي على العالم الخارجي . وبعد ان يتم العرض تلقى السمكة في المياه مرة ثانية لتنمو حتى المرة التالية . وهكذا فان على المجلة ، مثلها مثل الصيد الماهر ، ان تعرف اين تلقي شبكتها ، ان تعرف قوة الشبكة وحجمها ، وان تتصف بالحكمة في معرفتها للسمكة التي ينبغي اعادتها للبحر بحيث يكون الصيد اكبر في المرة التالية . الا ان كل هذا ليس اكثر من وظيفة واحدة من وظائف المجلة - وظيفة العارض . وهناك وظائف اخرى اهم بكثير . واريده الآن ان اوضح الطريقة الحيوية التي تتم عمل فيها المجلة لا على اظهار قدرة الحضارة على البقاء فحسب بل على تطويرها بشكل فعال ايضا ، وذلك بالابتعاد مؤقتا عن الموضوع وبحث طبيعة المجلة الادبية . وانا افترض ان التسليم بالحاجة للمجلات الادبية واهميتها في اي مجتمع امر مقبول متفق عليه . ان هذه المجلات ، في اسوأ حالاتها ، وسائل للعلاقات العامة على المستويين المحلي والدولي ، في الامور الثقافية والاجتماعية . واعتقد انه يمكننا ان نتقدم بتعميم جديد لتصور في هذه المرحلة ، وهو ان الحكم على نشاط واستعداد الحضارة في مجتمع ما ، على اساس عدد ونوعية المجلات التي تساعدها وتساندها هذه الحضارة ، قاعدة لا بأس بها . فكلما زادت المجلات في منطقة من المناطق ، كان ذلك افضل وادل على الصحة والحياة .

والمجلات هي ايضا كالحضارات : فهي اما مجلات منفتحة او منطوية ؛ وهي تقدمية ، او محافظة ، او متخلفة ، او بيوريتانية ، او بطيئة الحركة ، او سريعة . وهي في احسن حالات وعيها تعكس مميزات مجتمعها او نواحي ضعفها ؛ وهي في حالات عماما المطبق اشبه بصناديق لعرض غباوات محررها . ولا يمكننا ابدا اهمال العامل الشخصي لدى بحثنا موضوع المجلات . فالمجلة ، بشكلها ومحتواها ، نتاج رئيسي لخيرها . قليلة هي النشاطات الاخرى (باستثناء صناعة الافلام) التي تتضمن تعاون عدد كبير من المواهب المتفانية ، والتي يعزى فيها ، مع ذلك ، نجاح او فشل النتاج النهائي الى شخص واحد : هو رئيس التحرير . فما كان لابد للمجلات ان تعاني من نقطة الضعف هذه - عامل « الضعف الانساني » - فما هي الخطوط التي يمكننا رسمها لرحلتها الآمنة المفيدة ؟

اولا ، كيف ينبغي ان توضع مقاييس التحرير ؟ ان التعريفات التحريرية تنحصر في صنفين : واحدها ، تلك التي تتعلق بإدارة التحرير ، مما يتضمن اللغة التي يجب استعمالها (مجالات التوصيل) ، والمنطقة الجغرافية التي يقطنها القراء (تقرير الموقع الطبيعي ، والتوزيع ، الخ) ، والاهداف المباشرة للمجلة (« لدعم مصالح الجيل الافريقي في افريقيا الشرقية » مثلا ، او « لتشجيع الكتاب الشباب » او « لتوفير مجال لمناقشة امور الحضارية ») ؛ والصنف الآخر ميتافيزيقي التحرير ، مما يتضمن الحقل النهائي للعمل والافتراضات الفلسفية المتبعة . ولتوضيح هذه النقطة ، نقول ان قرار ميتافيزيقي التحرير هو الذي يقضي ، مثلا ، باتباع طريقة افريقية محلية او باتباع نظرة تمثل الوحدة الافريقية ؛ وتتضمن الاولى تغطية ضمنية لكل ما يحدث في القارة افريقيا ، بينما تحفز الثانية دينامية المثل الاعل لفلسفة الوحدة الافريقية « لانتقاء » ما تغطيه . قد تبدو هذه الاختلافات نوعا من العتب الذي لا مبرر له ، لكنني لا اظنها كذلك : ففي آخر المطاف ، حين نموت يوما ، سيبدو الفرق ، لاولئك الذين سيأتون لدفن عظام حضارتنا في قبورها ، فرقا بين واقع « سياسي »

وواقع حقيقي .

تنشأ النقطة الثانية عن الاولى : كيف يجب ان تؤكد حيادية التحرير نفسها ؟ ان احدى وظائف المجلة هي ان تكون مرآة مجتمعها . ومن المهم الا تتلوه الصورة حين تنعكس على صفحاتها . لكن ، من الناحية الاخرى ، ليس ثمة اسوأ من سياسة تحريرية سلبية تنشر كل ما يرد عليها « لانه عكس حقيقي » لواقع الامور . وحين تصل سلبية التحرير الى حد متطرف سيعني هذا ان رئيس التحرير لن ينشر الا ما يرسل اليه من مواد ، لان هذا اكثر طبيعية من حمل الناس حملا على الكتابة . ولعل افضل ما يعبر عن حيادية التحرير هو وصفها بانها « لا تحيز عدائي » من جانب رئيس التحرير : بانها استعداد لرؤية كل جبهات النقاش ، واستعداد نظامي يسمح لذوي الافكار بان يصلوا اقصى حدود مناقشتهم او وجهات نظرهم .

حين كان العدد الاول من « ترانزن » في طور الاعداد للطبع اوردنا فيه متعمدين المجلة المعتادة - التي تكاد تكون اشبه بكليشيه في عالم المجلات - « الآراء التي يجري التعبير عنها ليست بالضرورة آراء المجلة » . وما املناه كان ان تتيح الحرية للكتاب ، مهما كانت آراؤه مخالفة لآرائنا ، ان يعبر بذلك عن وجهة نظره دون ان نضع على وجوهنا « تكشيرة ليبرالية » ونمنعه عن قول ما يريد ان يقول . وهذا امر هام جدا . لكن على رئيس التحرير ان يكون محايدا فيما يتعلق بافكار الناس ، لا ان يكون هو بلا افكار . فقبوله للآراء المنفرة يجب ان تقرره قدرته على الرد عليها ، وليس لان واحدا من الناس قال : « انظر دائما الى طرفي القصة كليها » .

وما لم يحس الكتاب والقراء بهذا الجو من « اللاتحيز العدائي » ، فلن يفهم شيء للاتسام بالاستفزاز او حتى بالمشاكسة اللعوب ، وسيكون المزاح ، الذي يرافق في العادة هذه المبالغات في الاحاسيس ، مفقودا بشكل ملحوظ . والامم من ذلك هو ان ما قد يزحف الى اعمدة المجلة والحالة هذه ، هو وتر من التهذيب والرقق المقيت او الحلو ، حيث يربت كل واحد على ظهر الآخر بهدوء . وعندما يحدث مثل هذا ، فخلق بالحرر ان يقفل مجلته وينصرف . وان لم تكن الغلطة غلطة المحرر في هذا الوضع ، فان الامر يشير الى ان حضارة ذلك المجتمع بالذات قد اصيبت بالعجز ، ولم تمد اكثر من مجموعة من الكسحاء يعين بعضهم بعضا .

ان مثل هذا الحياد يتضمن الاستقلال ايضا . فالمجلة الادبية هي المكان الوحيد الذي لا حاجة فيه لان يكون السياسيون مهووسين فيما يتعلق بصورتهم لدى الجماهير ، والذي يمكنهم فيه ان يشعروا بالحرية لمناقشة معتقداتهم ومذاهبهم ودوافعهم بهدوء وامانة . فالفائدة العظمى لمجلة كهذه هي انها ليست « جماهيرية » بالمعنى الذي ينطبق على الجريدة ، وانها هي موجهة للناس المفكرين ، وانها في معزل عن العمليات والتوترات التجار التي لها اهمية قصوى في الجريدة . والمجلة مجال يجب على المحرر فيه ان يستمد للبادرة بطرح الآراء غير الشعبية (واحيانا الدفاع عنها) او الآراء المعاكسة لشعور الجماهير (او الحكومة) في ذلك الوقت ، ان كان يعتقد ان تلك الآراء ذات اهمية بالغة . وهذه واحدة من اهم الوظائف التي يمكن ان تؤديها المجلة في مجتمعاتنا النامية اما ان كان رئيس التحرير ، من الناحية الاخرى ، يعتريه القلق كلما هذر السياسيون بكلمات « فكر » « ثقافة » ، وان كان في موقف الدفاع عن وظيفته ودائمه الاعتذار عن الدور الذي يؤديه ، فلا شك ان نتيجة هذا هي ان جهوده في هذا المجال ستكون عديمة الفائدة تقريبا ، وانه سرعان ما سيجد نفسه في دور المطالب الحكومية - الشيء الذي تمتلك سائر الحكومات قدرا كبيرا منه في وزارات الاعلام ، دون ان تكون بحاجة للمساعدة الخارجية للحصول عليه . ان هذا المجال بالذات هو المجال الذي تتحدد فيه قيمة المجلة بنصيب من « الانفتاح » او « الانطواء » . وهو ايضا المجال الذي يمكن فيه قياس استعداد حكومة ما للاصغاء للآراء الواعي ولتلقّي الطعنات ممن تطعمهم (ان كانت تعطيهم معونات او منحا) . ولما كانت الحكومات انسانا بشرية ، فمن الممكن ، بطبيعة الحال ، ان تخزر ونتوقع طبيعة اتجاهاتها .

من الحياد للاستمرار : كيف تستمر المجلة من عدد لآخر ؟ هل تبدأ من جديد مع كل عدد ، ام تحوّل خيوطا من مناقشات اثّرت في اعداد ماضية ؟ كلا الامرين معا . فاحدى مهام رئيس التحرير الیقظ هي امتلاك للقدرة على امساك ذيل الافكار الجانبية وتوسيعها . والافكار الجانبية افكار تلقى بلا تعمد اثناء تتبع قضا

سواها بالغة الاهمية ، وهذه قد تحتوي في ثناياها على ما يكفي من البذور لان تنمو وتكبر حتى تغدو شيئا جديدا تماما ومستقلا عن الاصل . فالكتاب الذي يوشك على البدء بكتابة مقالة يضع لنفسه حدودا ، ويعتمد التعامي عن القضايا التي تتناثر عن مناقشته وتتخلف وراءها ، وتعاميه هذا يفيد احيانا بكونه للافكار الجديدة مثل الدم اللطيفيات . ان الافكار الجانبية تولد في نوبة من عدم الانتباه ، وعلى رئيس التحرير ان يتصرف كالقابلة ان كان يعتقد ان القضية ستعود بالفائدة . وعلى هذا ، ومن الوجهة المثالية ، تتمكن المجلة الحسنة التحرير من تخليد نفسها ، مثل اللبن الرائب . فالعدد الواحد ينبغي ان يحتوي على ما يكفي من البذور لخلق العدد التالي .

ومن الاستمرار للدوام : تواجه المجلات الادبية في افريقيا والبلاد النامية اعباء ومسؤوليات لا تواجهها مثيلاتها في البلاد الاخرى . فمن ناحية ، يتوجب عليها ان تتمتع بالحياة والنباهة والمرح بل والطيش احيانا (فيما نأمل) ، وان تسجل ، عرضا ودون كبت ، ما في الايام التي تعيشها من غنائية ومن رثائية . ومن الناحية الاخرى ، يتوجب عليها ، كالابن الاكبر في عائلة فقدت الاب فجأة ، ان تتصف بالنضج والمسؤولية . وهذه المسؤولية تقع ضمن مجال النشر الذي يمكن تسميته بشيء من التجاوز «الجانب الروائقي او التسجيلي» . فعلى المجلة مسؤولية ، هي تسجيل ما كان قد مر سابقا دون ان يلاحظ . وعليها ان تطبع ما كان في السابق يقال شفاها . وتسجيل الاغاني والاساطير الشعبية مثل واضح على ذلك . وهكذا فان عليها ان تلعب دورا مزدوجا ، قوامه المحافظة والمبادرة في السياق الحضاري للبلد الذي تعمل فيه .

اما عندما يصبح ممكنا ، في مجلة ادبية ما ، ان تتوقع الآراء التي ستشرها وتنتبأ عن الكتاب الذين ستختارهم ، اي عندما تصبح في الواقع خلية لعدد محدود من الكتاب المختارين ، دون سواهم ، فان المجلة تكون قد وصلت منتصف عمرها ، وستكف عن اجتذاب حيويات الكتاب والحلاقين الشباب . وسينظر هؤلاء الى

امكنة اخرى ، او سينشئون مجلات خاصة بهم تعكس اجواءهم ومعتقداتهم بشكل اذق .

كلمة اخيرة ، عن الجمهور . لعل افريقيا ، من عدة نواحٍ ، اسعد حظا من غيرها من القارات في هذا المضمار . فهي تطلب وتعتمد على المواهب ذات الاروجه المتعددة لرجال الادارة الشبان فيها ومنهيبها وخلاقيها ليس ثمة اصناف محددة ، من نوع ما يدعى « بالثقافتين » ، يندرج الناس تحتها او يكيفون بمقتضاها . ان رغبة المثقفين في افريقيا ان يكونوا - وغالبا ما يكونون - رجالا يستطيعون ان يواجهوا بهدوء التطلبات التي تضعها مقعدة من الشعر او مشكلات حل خيوط الحزب السياسي . والمجلة التي لاتتصف بشفاهة والتقدير بهذا المعنى ستحظى باعظم القدر لدى جمهور القراء ، وستظهر ضمنيا انها لا تقلل من اهمية قراءة قرائها او مدى اهتمامهم . وان قصرمت نفسها على تأدية وظيفة واحدة من وظائفها ، وهي الاستجابة لشعابة عامة للاحتياجات الثقافية والفكرية لرجال افريقيا الجدد ، فستكون قد بررت دورها في الوجود في هذا الوقت ، في هذا القرن ، فيما هو بلا شك عهد من عهود النهضة الحضارية والروحية .

اثناء مناقشتي في هذا المقال لما يجب ان تكون عليه المجلة الادبية ، اتخذت طريقا ملتويا لاطهر كيف ان تلعب المجلة دورها في تطوير حضارة ما . وكما قلت منذ البداية ، اذا كانت الحركات الحضارية لمجتمع غير واضحة وغير مرئية من السطح ، فهذا يستتبع ان كلا من الملاحظين والمشاركين في تلك الحضارة يكونون غير قادرين هم ايضا على رؤية طبيعة ومدى ذلك النشاط رؤية كاملة . ان المجلة الادبية الجيدة مع عصا الرجل الاعمى . انها تعينه على لمس الطريق . ويمكنها ان تقوم بذلك على افضل وجه اذا كانت « منفتحة » في مجتمع « منفتح » ؛ ويمكنها ان تقوم بذلك بصورة اقل جودة شيئا ما - ولكن ربما كل اهم واخطر - اذا كانت مجلة « منفتحة » في مجتمع « منطوي » .

الا ان الهدف الاخير للمجلة الادبية هو المناداة بالتغير ، هو التنبؤ بالشكل الجديد الذي ستخذه حضارتها المجتمع الذي تمثله . وهي ستفعل هذا بان تسمح احيانا لاصوات التحيز والمشاكل المؤقتة بالارتفاع والتعبير بحاله وبان تكون منفتحة الصدر للبدع الراديكالية ، وبان ترفع الستر في الوقت المناسب ، لاطهار ما في

ملء الحقة من فريدة ومن عالمية شاملة .

راجات نيوجي